﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [سورة الكهف]

ولكن الإرغام من الحق جاء للأمور القهرية القدرية الكونية الخارجة عن نطاق التكليف، أما أمر التكليف فالله سبحانه وتعالى قال فيمن يرفضون الطاعة: «يصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد» وسبحانه قد أوضح لنا: نحن لم نجعل ذلك قهراً منا لهم دون عمل عملوه باختيارهم بل إن العذاب والصغار كانا جزاءً لمكرهم.

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى لنا بقضية يقع فيها الجدل التبريرى لبعض الناس الذين أسرفوا على أنفسهم، ويريدون أن يجعلوا إسرافهم على أنفسهم فى الذنوب خاضعا لأن الله أراد منهم ذلك؛ فيقول سبحانه:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥)﴾

نجد من يقول إن ربنا حين يريد لإنسان أن يشرح صدره للإسلام فذلك من إرادة الله وماذنب المكلف إذن؟.

وللرد على هذا نقول: لقد عرفنا من قبل أن الهداية لها معنيان: المعنى الأول: الدلالة وهى أمر وارد وواجب حتى للكافر. فإن هُدى الله للكافر أن يدلّه إلى طريق الخير، ولكن هناك هداية من نوع آخر وهى للذى آمن، ويصبح أهلاً لمعونة الله بأن يخفف عنه أعباء التكاليف وييسرها له ويجعله يعشق كل الأوامر ويعشق البغض والتجافى عن كل النواهى.

يقول بعض الصالحين : «اللهم إنى أخاف ألا تثيبنى على طاعة، لأنى أصبحت أشتهيها» كأنه عشق الطاعة بحيث لم يعد فيها مشقة أو تكليفاً، لذلك فهو خائف، وكأنه قد فهم أنه لابد أن توجد مشقة، ولمثل هذا الإنسان الصالح نقول : لقد فقدت الإحساس بمشقة التكليف لأنك عشقته فألفت العبادة كما ألفتك وعشقتك، وحدث الانجذاب بينك وبين الطاعة، وجعلت رسول الله مثلاً لك وقدوة، فقد كان ﷺ يرى أنه إذا نودى إلى الصلاة يقوم الناس إليها كسالى لكنه ﷺ يقول لبلال حينما يأتى وقت الصلاة : «أرحنا بها يابلال» .

وهذا غير مايقوله بعض ممن يؤدون الصلاة الآن حيث يقول الواحد منهم : هيا نصل لنزيحها من على ظهورنا، وهؤلاء يؤدونها بالتكليف لا بالمحبة والعشق. أما الذين ألفوا الراحة بالصلاة حينما يحزبهم ويشتد عليهم أمر خارج عن نطاق أسبابهم، يقول الواحد منهم : مادامت الصلاة تريح القلب، فلأذهب إليها وألقى ربى زائداً على أمر تكليفه لى متقربا إليه بالنوافل، ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة. ومعنى حزبه أن الأسباب البشرية لاتنهض به. فيقوم إلى الصلاة، وهذا أمر منطقى، ولله المثل الأعلى .

كان الإنسان منا وهو طفل إذا ما ضايقه أمر يذهب إلى أبيه، فما بالنا إذا ما ضايقنا أمر فوق الأسباب المعطاة لنا من الله فلمن نروح؟ إننا نلجأ لربنا ولقد كان ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة.

إذن فعشق التكليف شىء يدل على أنك ذقت حلاوة الطاعة، وقد يجوز أنه شاق عليك؛ لأنه يخرجك أولاً عما ألفت من الاعتياد. فعندما يأتيك أمر فيه مشقة تقول : إن هذه المشقة إنما يريد ا بها لى حسن الجزاء، فإذا ما عشقت الصلاة صارت حبًا لك، وكان واحد من الصالحين - كما قلت- يخاف ألا يثاب على الصلاة لأنها أصبحت شهوة نفس، والإنسان مطالب بأن يحارب نفسه فى شهواتها لكن رسول الله ﷺ وضع لنا المثل فقال : «لا يؤمن أحدكم حتى يصبح هواه تبعاً لما جئت به» أى يصبح ما يشتهيه موافقا لمنهج الله، فإذا وصل وانتهى المؤمن إلى هذه المنزلة فهو نعم العبد السوى .

وهكذا عرفنا أن الهداية قسمان : هداية بمعنى الدلالة، وهداية بمعنى المعونة .

فإذا ما اقتنعت بهداية الدلالة وآمنت بالحق فسبحانه يخفف عليك أمور التكليف ويجعلك عاشقاً لها ، ولذلك يقول أهل الصلاح : ربنا قد فرض علينا خمس صلوات ، وسبحانه يستحق منا الوقوف بين يديه أكثر من خمس مرات ، وفرض علينا ربنا نصاب الزكاة وهو اثنان ونصف بالمائة ، وسبحانه يستحق منا أكثر من ذلك لأنه واهب كل شيء ، وهذا عشق التكليف ، وهذا هو معنى قوله : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) .

« فمن يرد الله أن يهديه » أى يدلّه سبحانه كما دل كل العباد إلى المنهج ، لكن الذى اقتنع بالدلالة وآمن يسهل عليه تبعات التكليف مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾

(سورة مريم)

فهذه هداية المعونة ، وفيه فرق هنا بين الإسلام والإيمان لأن الإيمان لا يحتاج فقط إلى الاعتقاد ؛ إنما هو حمل النفس على مطلوبات الإيمان . ولذلك نجد أن كبار رجال قريش رفضوا أن يقولوا : « لا إله إلا الله » ؛ لأنهم علموا أنها ليست مجرد كلمة تقال ، ولكن لها مطلوبات تتعب فى التكاليف الناتجة عنها بـ « افعل » و « لا تفعل » . فالتكليف يقول لك : « افعل » لشيء هو صعب عليك ، ويقول لك : « لا تفعل » فى شيء من الصعب أن تتركه ، لذلك يقول سبحانه :

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة الأنعام)

وسبحانه يشرح صدره للإسلام بعد أن علم أنه قد اعتقد شريعة التوحيد ورضيها واطمأن بها ، فيأتى إلى فهم التكاليف ؛ لأن صحيح الإسلام يقتضى الانقياد لأمور التكاليف ، فمن أخذ الهداية الأولى وآمن بربه ، يوضح له سبحانه : آمنت بى وجئتنى ؛ لذلك أخفف عنك تبعات العمل ، ويشرح صدره للإسلام ، وشرح الصدر قد يكون جزاءً . فسبحانه هو القائل :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ ﴾

(سورة الشرح)

فقد جازاه ربنا بذلك ؛ لأنه أدّى ما عليه وصمد . كأن الله يريد بالإيمان من المؤمن أن يقبل على الحق ، وحينما يقبل على الحق ، يبحث العبد ليتعرف على المراد والمطلوب منه فيعلم أنها التكاليف ، فإذا رأى الله منك الاستعداد المتميز لقبول التكاليف ، فإنّه يخففها عنك لا بالتقليل منها ، ولكن بأن يجعلك تشتهيها ، وقد تلزم نفسك بأشياء فوق ما كلفك الله ؛ لتكون من أهل المودة ومن أهل التجليات ومن الذين يدخلون مع الله فى ود ، وتلتفت لنفسك وأنت تقول : لقد كلفنى الله بالقليل وسبحانه يستحق الكثير . فتزيد من طاعتك وتجد أمامك دائماً الحديث القدسى :

« من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها »[1] .

أى بالأمور التى تزيد على ما كلفه فى الصلاة والزكاة والصيام والحج .

إذن فمعنى « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » أى يجعل الأمور التى يظن بعض من الناس أنها متعبة فإنه بإقباله عليها وعشقه لها يجدها مريحة ويقبل عليها بشوق وخشوع . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يترك فى خلقه مُثُلاً للناس . فنجد المال عزيزاً على النفس حريصة عليه لأنه إن كان المال قد جاء بطريق شرعه الله وأحله فهو يأتى بتعب وبكدّ ؛ لذلك يحرص عليه الإنسان ، فيحنن الله العبد من أجل البذل والعطاء .

إننا نجد المؤمن يعطى للسائل لأن السائل هو الجسر الذى يسير عليه المسلم إلى الثواب من الله ، فيقول العبد المؤمن للسائل : مرحباً بمن جاء ليحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة ، ولذلك عندما جاء مسلم إلى الإمام علىّ ـ رضى الله عنه وكرّم الله وجهه ـ ، قال المسلم : أنا أريد أن أعرف أأنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟

---

(١) رواه البخارى .

واختار الإمام علىّ مقياساً للإيمان فى نفس كل مؤمن، وقال له: إن جاءك من يطلب منك، وجاء من يعطيك، فإن كنت تهش لمن يعطيك فأنت من أهل الدنيا، وإن كنت تهش لمن يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة؛ لأن الإنسان يحب من يعمر له ما يحب.

إذن فـ «يشرح صدره للإسلام» أى يخفف عنه متاعب التكليف بحيث لا توجد مشقة، ثم يرتقى بعد ذلك ارتقاءً آخر بأن يعشقه فى التكليف. ويهديه الله إلى طريق الجنة، لأن هناك هداية إلى المنهج وهداية إلى الجزاء على المنهج، ولذلك نجد القرآن يقول؛ عمن ضلوا:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ .. (١٦٩) ﴾ [سورة النساء]

كأن هناك هداية إلى العمل وهداية إلى الجزاء، ونجد الحق يقول:

﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) ﴾ [سورة محمد]

وقد يتساءل إنسان: كيف يهدى الله من قتل، وهل هناك تكليف بعد القتل؟. نقول: انظر إلى الهداية، إنها هداية الجزاء «سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم».

وهكذا نعرف أن هناك هداية الجزاء، من يحسن العمل يُجزِه الله الجنة، أما من يسىء فله عذاب فى الدنيا والآخرة.

﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) ﴾ [سورة الأنعام]

وهل هذا تجن من الله على خلقه؟ لا، لأنه مادام دعاهم للإيمان فآمن بعضهم وصاروا أهلاً للتجليات، وكفر بعضهم فلم يؤمنوا، فصاروا أهلاً للحرج وضيق الصدر. ومعنى الضيق أن الشيء يكون حجمه أقل مما يؤدى به مهمته، فحين يقال: ضاق البيت بى وبعيالى، فهذا يعنى أن الرجل وزوجه فى البداية عاشا فى غرفتين، وكان البيت متسعاً. ثم أنجبا عيالاً كثيرة فضاق بهم البيت. وهكذا نعلم أنه لم يطرأ شىء على الجدران ومساحة البيت، لكن حين زاد عدد الأفراد شعر رب الأسرة بضيق المنزل. ويقال: صدره ضيّق أو ضيْق فقد ورد فى القرآن لفظ ضيق على لغتين: فالحق يقول:

﴿ .. وَلا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [سورة النحل]

وهناك فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها توجد كلمة ضَيّق، والحق يقول:

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة هود]

فما المراد من «ضائق»، و«ضيّق»، و«ضيْق»؟. نعرف أن الصدر هو مكان الجارحتين الأساسيتين فى التكوين: القلب والرئة، والرئة هى الجارحة التى لا تستمر الحياة الا بعملها؛ فقد تبطىء الأمعاء مثلا، أو تتوقف قليلا عن عملها، ويتغذى الإنسان على خزينه من الدهن أو اللحم ولذلك يصبر الإنسان على الجوع مدة طويلة، ويصبر على الماء مدة أقل، لكنه لا يصبر على افتقاد الهواء لدقائق، ولا صبر لأحد على ترك الشهيق والزفير.

ولقد قلنا من قبل: إن الحق سبحانه وتعالى قد يملكّ بعضاً قوت بعض. وأقل منه أن يملّك بعضا ماء بعض، لكن أيملّك أحداً هواء أحد؟ لا؛ لأن الرضا والغضب أغيار فى النفس البشرية. فإذا غضب إنسان على إنسان، وكان يملك الهواء وحبسه عنه فالإنسان يموت قبل أن يرضى عنه هذا الآخر، ولذلك لم يملّك الله الهواء لأحد من خلقه أبداً.

إذن كل المسألة المتعلقة بقوله: «يجعل صدره ضيقاً حرجاً» نعلم عنها أن الصدر

هو محل التنفس، والرئة تأخذ الأوكسجين وتطرد ثانى أوكسيد الكربون، وعندما يصاب الإنسان بنوبة برد نراه وهو يجد صعوبة فى التنفس، كأن حيّز الصدر صار ضيقاً، فلا يدخل الهواء الكافى لتشغيل الرئتين، ويحاول الإنسان أن يعوض بالحركة ما فاته فينهج. ويشخص الأطباء ذلك بأن المريض يريد أن يأخذ ما يحتاجه إليه من الهواء، فينهج؛ لأن الحيّز قد ضاق، وكذلك عندما يصعد الإنسان سلماً، ينهج أيضاً؛ لأن الصعود يحتاج إلى مجهود، لمعاندة جاذبية الأرض، فالأرض لها جاذبية تشد الإنسان، ومن يصعد إنما يحتاج إلى قوة ليتحرك إلى أعلى ويقاوم الجاذبية.

إننا نجد نزول السلم مريحاً؛ لأن فى النزول مساعدة للجاذبية، لكن الصعود يحتاج إلى جهد أكثر، فإذا ضاق الصدر فمعنى ذلك أن حيز الصدر لم يعد قادراً على أن يأخذ الهواء بالتنفس بطريقة تريح الجسم، ولذلك يقال: «فلان صدره ضيق» أى أن التنفس يجهده إجهاداً بحيث يحتاج إلى هواء أكثر من الحجم الذى يسعه صدره.

«ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً» والحرج معناه الحجز عن الفعل، كأن نقول حرَّجت على فلان أن يفعل كذا، أى ضيقت عليه ومنعته من أن يؤدى هذا العمل. (كأنما يصّعد فى السماء).

وعلمنا أن الصعود لأعلى هو امتداد لفعل الجسم إلى جهة من جهاته. فالجهات التى تحيط بأى شىء ست: هى فوق وتحت، ويمين، شمال، وأمام، وخلف، وعرفنا أن الهبوط سهل؛ لأن الجاذبية تساعد عليه، والمشى ماذا يعنى؟ المشى إلى يمين أو إلى شمال أو إلى أمام أو إلى خلف، فهو فعل فى الاستواء العادى الظاهر، والذى يتعب هو أن يصعد الإنسان، لأنه سيعاند الجاذبية، وهو بذلك يحتاج إلى قوتين: قوة للفعل فى ذاته، والقوة الثانية لمعاندة الجاذبية.

«ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعد فى السماء» وذلك بسبب مشقات التكليف؛ لأنه لم يدخلها بعشق، فلا يدخل إلى مشقات التكليف بعشق إلا المؤمن فهو الذى يستقبل هذه التكاليف بشرح صدر وانبساط نفس وتذكر بما يكون له من الجزاء على هذا العمل، والذى يسهل مشقة الأعمال حلاوة تصور الجزاء عليها؛ فالذى يجتهد فى دروسه إنما يستحضر فى ذهنه لذة النجاح وآثار هذا النجاح

فى نفسه مستقبلاً وفى أهله . أما الذى لا يستحضر نتائج مايفعل فيكون العمل شاقاً عليه .

﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ .. (١٢٥) ﴾

[سورة الأنعام]

والسماء هى كل ماعلاك فأظلك ، فالجو الذى يعلوك هو سماء ، وكذلك السحابة ، وأوضح لنا ربنا أنه أقام السموات السبع ، وهنا أراد بعض العلماء الذين يحبون أن يظهروا آيات القرآن كمعجزات كونية إلى أن تقوم الساعة ، أرادوا أن يأخذوا من هذا القول دليلاً جديداً على صدق القرآن ، وتساءلوا : من الذى كان يدرك أن الذى يصعد فى الجو يتعب ويحتاج إلى مجهودين : الأول للعمل والثانى لمناهضة الجاذبية ولذلك يضيق صدره لأنه لايجد الهواء الكافى لإمداده بطاقة تولد وقوداً .

ونقول لهؤلاء العلماء : لا يوجد مايمنع استنباط مايتفق فى القضية الكونية مع القضية القرآنية بصدق ، ولكن لنحبس شهوتنا فى أن نربط القرآن بكل أحداث الكون حتى لاتتهافت فنجعل من تفسيرنا لآية من آيات القرآن دليلاً على تصديق نظرية قائمة ، وقد نجد من بعد ذلك من يثبت خطأ النظرية .

إنه يجب على المخلصين الذين يريدون أن يربطوا بين القرآن لمافيه من معجزات قرآنية مع معجزات الكون أن يمتلكوا اليقظة فلا يربطوا آيات القرآن إلا بالحقائق العلمية ، وهناك فرق بين النظرية وبين الحقيقة ؛ فالنظرية افتراضية وقد تخيب .

لذلك نقول : أبعد القرآن عن هذه حتى لاتعرضه للذبذبة . ولا تربطوا القرآن إلا بالحقائق العلمية التى أثبتت التجارب صدقها .

وقائل القرآن هو خالق الكون ، لذلك لاتتناقض الحقيقة القرآنية مع الحقيقة الكونية ؛ لذلك لاتحدد أنت الحقيقة القرآنية وتحصرها فى شىء وهى غير محصورة فيه . وتنبه جيداً إلى أن تكون الحقيقة القرآنية حقيقة قرآنية صافية ، وكذلك الحقيقة الكونية .

﴿ .. كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) ﴾

[سورة الأنعام]

والرجس وهو العذاب ، إنما يأتيهم بسبب كفرهم وعدم إقبالهم على التكليف .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦ ﴾

و « هذا » مقصود به ما تقدم من آيات . من كتاب الإسلام وهو القرآن ، وذلك ما يشرح الصدر القابل للإيمان ، والقرآن هو الحامل لمنهج الإسلام ؛ فمرة تعود الإشارة إلى القرآن أو إلى الإسلام . وليس هناك خلاف بين القرآن والإسلام .

(وهذا صراط ربك مستقيماً) . و « الصراط » هو الطريق السّوى ، والطريق السّوى قد يكون مع استوائه معوجاً لكن هذا الطريق مستوٍ ومستقيم ، ونعلم أن الطريق المستقيم هو أقصر الطرق الموصلة للغاية . وعلى هذا فصراط لا تغنى عن مستقيم ، ومستقيم لا يغنى عن صراط ، بل لابد من صراط معبد ومستقيم ليكون أقصر طريق إلى الغاية وبلا متاعب ، إننا ـ نحن البشر ـ نرى المهندسين وهم يقيسون الأبعاد والمسافات والغايات والبدايات والنهايات ، وبعد ذلك يربطون البدايات بالغايات .

إنهم يحضرون آلات معينة ليرصدوا استقامة الطريق وكيفية تمهيده . وقد يعترض استقامة الطريق عقبات صعبة شديدة كأداء كجبل مثلاً ، فيقوم المهندسون إما بنحت نفق فى الجبل ليضمنوا له الاستقامة ، وإما بأن يحنى الطريق ليضمنوا جودة تعبيد الطريق . فإن جاء المهندسون وقالوا نمشى من هنا لنضمن استقامة الطريق فإننا نفعل ذلك . وإلاّ جعلوا الطريق متعرجاً أو حلزونيًّا ؛ وذلك ليتفادى السائر العقبات التى ليس له قدرة عليها .

لكن إذا كان الصراط قد مهده رب ، أتوجد له عقبة ؟ طبعاً لا ، إذن فهو طريق مستقيم . ولنلحظ أنه سبحانه قال : « صراط ربك » أى أنه جاء بها من ناحية

الربوبية ، والربوبية عطاء الرب ، إنه سيد ، ومرب ، وخالق الخلق ويضمن لهم ما يعينهم على مهمتهم فى الوجود معونة ميسرة سهلة . وهكذا نعرف أن طريق الحق هو الصراط المعبد المستقيم ، أى الذي يصل بين البداية والنهاية . فإن كان الطريق الذى نتبعه مستقيماً ومعبداً ، وسهلاً ، فلماذا لا نتبعه ؟

« وهذا صراط ربك » . ونلحظ أنه سبحانه قد أسند الرب لمحمد ، أى من أجل خاطره جعل الصراط مستقيماً ؛ لأنه سبحانه هو المتولى لربوبيتك يا محمد ، وسبحانه رب الكون كله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عين أعيان الكون .

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

« فصّلنا » أى أنّ كل شيء فى هذا الكون مخلوق لما يناسبه ، وكل قضية من قضايا الكون خلقها ربنا لتحقق الفائدة منها بدون مشقة ، وبدون عنت . والمنهج الذى أنزله الله إنما يصلح الكون ويجعل كل شيء فيه مناسباً لمهمته ؛ لأن الله إله كل الناس وهم بالنسبة إليه سواء لأنه لم يتخذ لا صاحبة ولا ولداً . ولا يعطى سبحانه الحياة لمخلوق ويوجده فى الكون ، ثم يعرّيه من أسلحة الحركة فى الحياة ، ولكل إنسان سلاح من موهبة أو قدرة وبذلك تتعدد الأسلحة والمواهب والقدرات ، فمن يريد أن يبنى بيتاً ، أنقول له : اذهب إلى كلية الهندسة لتتعلم كيف ترسم البيت وتخططه ؟ أنقول له : تعلم كيف تكون فنيًا وكهربائيًا ونقاشاً ؟ إن الفرد الواحد لا يمكن أن يتعلم كل هذه التخصصات ، لذلك وزّع الله المواهب على خلقه ؛ هذا عنده موهبة ليعمل لنفسه ، ويعمل لغيره . وبعد ذلك يأتى غيره ليؤدى له عملاً ليس له فيه موهبة بحيث يتكامل المجتمع كله ولا يتكرر أفراده .

ولو كنا تخرجنا جميعاً كأطباء أو مهندسين لما نفعت الدنيا ، ومن نقول عليهم : إنهم فشلوا فى التعليم يقومون بأعمال فى الحياة ما كنا نستطيع الحياة بدونها ؛ فقد خلقهم الله بقدرات عقلية محدودة ليهبهم قدرات أخرى تصلح فى مهمات أخرى . وإن تعلم المجتمع كله تعليماً عاليا لصار الهرم مقلوباً . وإن انقلب الهرم فمعنى هذا أن أجزاءً منه ستكون بغير دعائم فى الأرض . لذلك نجد أن هناك إعدادا عقليا أراده الحق لكل واحد من الخلق ، ولا نستطيع أن نقول لكل إنسان : تعلم وتخرج فى

الجامعة ثم اكنس الشارع . وكن فى الغد حداداً . لذلك ربط الحق كل عمل بالحاجة إليه ، ومن يحسن استقبال قدر الله فى نفسه يُعطِ الله له من العمل كل الخير .

ونلحظ الآن أن من يعمل موظفاً فى الدولة يحيا فى راتب محدود ، بينما تجد السباك يقدرعمله بأجر يحدده هو ، ويبقى الويل والتعب لمن كان تقدير عمله فى يد غيره . (وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) .

وانظر كل قضية فى الكون ، لم يُدخل ابن آدم فيها أنفه تجدها مستقيمة ، ولا يأتى الفساد إلا فى القضايا التى أدخل ابن آدم أنفه فيها بدون منهج الله . فإن دخلت فى كل مسألة بمنهج الله يستقم الكون تماماً . ولذلك يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى النظام الأعلى فى كونه والذى لا تدخل لنا فيه . ولا سيطرة عليه ؛ السموات ، والكواكب ، والشمس ، والقمر ، وحركة الأرض ، كل تلك الكائنات نجد أمورها تسير بانتظام ، ولذلك يقول لنا الحق سبحانه :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ ﴾

(سورة الرحمن)

فإن أردتم أن تستقيم أموركم فى شئونكم وأحوالكم الاختيارية فادخلوا فيها بمنهج الله ؛ لأن الأشياء التى تدار بمنهج الله بدون أن يتدخل فيها البشر تؤدى مهمتها كما ينبغى .

فعلى الإنسان ـ إذن ـ أن يتذكر كيف يأخذ من المقدمات التى أمامه ما يوصل إلى النتائج ، ولابد أن يأخذ المقدمات السليمة ليصل إلى الغايات الفطرية . وأقصر الأمور أن تسأل نفسك : أنت صنعة من ؟ صنعة نفسك ؟ ! لا ، هل أنت من صنعة واحد مثلك ؟ لا . وهل ادّعى واحد فى كون الله ـ وما أكثر ما يُدَّعى ـ أنه خلقك أو خلق نفسه ؟ لا . بل أنت وهو وكل الكون من صنعة الله ، فدعوا الله يقرر قانون صيانتكم ، وسيظل الناس متعبين إلى أن يسلموا الصنعة إلى خالقها . (وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) .

ولم يقل فصلنا الآيات لواحد ، بل قال « لقوم » حتى إذا ما مال أو غفل واحد فى الفكر يعدله غيره . وكلنا متكافلون فى التذكير ، وهذا التكافل فى التذكير يعصم كل

مؤمن من نفسه ؛ فإن حصل عندى قصور من سهو أو من غفلة أو من هوى يعدله غيرى . وهذه قضية كونية لو استقرأت الوجود كله وجدتها لا تتخلف أبدا، ولابد من تذكر الغاية التى جاء بها فى قوله الحق :

﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

أى أن لهؤلاء المتقدمين الذين صبروا وصابروا ورابطوا، لهم دار السلام، وهو أسلوب مكون - كما يقال - من مبتدأ وخبر، الا أن المبتدأ أخرٌ هنا، والخبر تقدّم، وكان المنطق أن يقال : «دار السلام لهؤلاء» ولكن الأسلوب القرآنى جاء ليقدم الخبر المكون من الجار والمجرور ومتعلقه، ويؤخر المبتدأ وذلك لخصوصية أرادها الحق، وهى أن هذه الدار لهم وحدهم دون غيرهم فهى خالصة لهم يوم القيامة و«دار السلام» مكونة من كلمتين، «دار» ومعناها ما يستقر فيه الإنسان، ويجمع هذا المكان كل ما تتطلبه حياة الإنسان، وهى أوسع قليلاً من كلمة «بيت» ؛ لأن البيت مكان يعد للبيتوتة، لكن كلمة «دار» تعد للحياة ولما يتعلق بالحياة من مقوماتها .

و«دار» هنا مضافة إلى السلام، وهو - كما نعلم - اسم من أسماء الله ، إذن فالحق هنا يوضح : لهم دار منسوبة للسلام وهو الله ، وهم مستحقون لها جزاءً منه، فإذا كانت الدار التى وعدها الله هى دار السلام وهو الله ، فلا بد أن فيها متعاً وإمكانات على قدر فضل المضاف إليه وهو الله ، ولماذا لم يقل الله : «دار الله »؟ ؛ لأن الله أراد أن يأتى بوصف آخر من أوصافه ؛ ليعطيهم السلام والأمن والاطمئنان .

وهناك فرق بين دور الدنيا، وهذه الدار ؛ فدور الدنيا فيها متع، ولكنك فيها بين أمرين : إما أن تفوت أنت ما هى فيه، وإما أن يفوتك ما فيها، ولذلك لا يوجد فى الدنيا أمن ؛ لأن غيرك قد يناوئك فيها ويعاديك، وقد تأتى لك مكدرات المرض، وقد تأتى لك معكرات الأعداء، كل ذلك ينغص عليك الأمن والسلام فى الدنيا . ولذلك أراد الحق أن تكون لك الآخرة دار سلام مادمت قد آمنت، وأن تـأمن فيها